الباب الرابع والعشرون

عصر الشعراء

الفصل الأول

بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة – انتحار تشوينج – شى هونج – دى يوحد الصين – السور الكبير – « إحراق الكتب » – إخفاق شى هونج – دى

أكبر الظن أن كنفوشيوس مات يائساً ، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد ، ولأن الأمة التى حاول أن يوحّدها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادرة فى الفوضى والفساد والانقسام . ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم فى آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيوس .

وفى وسعنا أن نحكم على الجو الذى كان يسود « عهد الدول المتنازعة » من قصة تشوينج ، وهو رجل بدأ نجمه يلمع فى سماء الشعر ، حتى سما إلى مركز عظيم فى وظائف الدولة ، ثم ألفى نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة ، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف ، وأخذ يفكر فى الحياة والموت إلى جانب غدير هادئ ، وسأل متنبئاً من المتنبئين :

« هل ينبغى لى أن أواصل السير فى طريق الحق والوفاء ، أو أسير فى ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل فى الحقول بالفأس والمجرف أو أسعى للرقى فى حاشية عظيم من العظماء ؟ هل أعرض نفسى للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والعظماء ؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كى أنال النجاح ؟ هل أكون نقى السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيما ، أو أكون معسول الكلام ، مذبذباً ، متزلفاً ، نهازاً للفرص ؟ »[1].

وتخلّص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد) . ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه فى كل عام ، ويحتفلون بهذه الذكرى فى يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذى ظلوا يبحثون فيه عن جثته فى كل مجرى من المجارى المائية .

وكان الرجل الذى وحّد الصين من أصل وضيع هو أدنأ الأصول التى استطاع المؤرخون الصينيون أن يخترعوها . فهم يقولون لنا إن شى هونج — دى كان ابناً غير شرعى لملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير النبيل « لو » ، وهو الوزير الذى اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلمة واحدة من كتاباته[2] (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبى الممتاز) .

ويقول زوماتشين إن شى اضطر والده إلى الانتحار واضطهد والدته ، وجلس على كرسى الإمارة وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التى كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد ؛ فاستولى على دولة هان فى عام ٢٣٠ ق . م ، وعلى چو فى عام ٢٢٨ وعلى ويه فى عام ٢٢٥ ، وعلى تشو فى عام ٢٢٣ ، وعلى ين فى عام ٢٢٢ ؛ واستولى أخيراً على دولة تشى المهمة فى عام ٢٢١ ؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال ، أو لعل ذلك كان لأول مرة فى التاريخ كله . ولقب الفاتح نفسه باسم شى هونج — دى ، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دائم لإمبراطوريته الجديدة .

أما أوصاف هذا الرجل الذى يعدّه المؤرخون الصينيون عدوّهم الألد ،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين ، ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ، له قلب كقلب النمر أو الذئب »[٣] . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نقشة وبسمرك ، وعقد العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على عرشها كان أول عمل قام به أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التى كانت مقامة من قبل عند حدودها ، وصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد فى أعدائه المقيمين فى داخل البلاد مورداً سهلا يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذى يعد رمزاً لمجد الصين ودليلا على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ، وتتخلله فى عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء أقامه الإنسان فى جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه فلتير : « إن أهرام مصر إذا قيست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها »[٤] . وقد احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون إنه « أهلك جيلا من الناس ، وأنفذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد الهمج عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقلل من حدته . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا غرباً إلى أوربا ، ثم اجتاحوا بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة فى أيديهم لأن الصين أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شى هوانج — دى ، وهو مغتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجّه عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة التى قامت عليها الدولة الصينية فى المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشترع الكبير ورئيس وزرائه ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعتزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أمراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تعيّنهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسّط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزّأ معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجمّل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقنع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢٫٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب[٥] .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقدة ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليا سيقضى لا محالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريتهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج ـ دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم رداً جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعنيهم[٦] . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلا »[٧] . فرد عليهم

لى سيو رئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لاترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قمتم جلالتكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحاديثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الحبل على الغارب ؛ فسينحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى .

«ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا «مذكرات تشين ، وأن يرغم الذين يحاولون إخفاء الشى — جنج ، والشو — جنج[*] ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاة الأمور لإحراقها[٨]» .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجىء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع[٩] . وإذ كانت

(*) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

الكتب فى تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل فى بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا[١٠] . ولكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفى الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإن كان كثير من الأغلاط قد تسرب فى أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج — دى مبغضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالا طوالا يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره[١١] .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شىَ فى شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مرار أن يغتالوه ، ولكنه كان يكشف أمرهم فى الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف فى أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله[١٣] . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه فى الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق فى غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً مسلسلة من بعده تنتهى بالإمبراطور المتمم لعشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبغضونه فإنه صار فى شيخوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة فى البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك الفتن حتى تختفى بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات قد دفن معه ليؤنسه فى قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال على قبره ، وأنفق الكثير منها فى تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ، وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ، وأقيمت فى القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ، وأشعلت فيه شموع ضخمة لكى تضىء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته إلى أمد غير محدود . أما العمال الذى حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء مع حملهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن[١٤]

الفصل الثانى

تجارب فى الأشتراكية

الفوضى والفقر — أسرة هان — إصلاحات وودى — ضريبة الدخل — مشروعات وانج مانج الاقتصادية — القضاء عليها — غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً فى أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس فى وسع إنسان أيا كان أن يجمع السلطة كلها فى يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادية وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكرى مغامر مرتزق يدعى جو — دزو ، وأسس أسرة هان التى ظلت تحكم البلاد أربعمائة عام كاملة ، تخللتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة(*) . وأعاد ون — دى (١٧٩ — ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى المرسوم الذى حرم به شى هوانج — دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع العادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه(١٥) .

وكان وو — دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ — ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(*) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهى مدينة هونان فو الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجان وهى مدينة سيان فو الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، والهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة فى التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التى تعوّدنا أن نقرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب فى الاشتراكية ، فجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك ليمنع الأفراد «أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ، ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »[١٦] . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوماتشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئة ، ويعقدون القروض ، والذين يشترون ليكدسوا مايشترونه فى المدن ، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائى . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها فى جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهلين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها فى الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يمنعون من أن يجنوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن فى جميع أنحاء الإمبراطورية »[١٧] . وكان دخل الأفراد كله يسجل فى سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبة مقدارها خمسة فى المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالقصدير لتكثر فى أيدى الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لاحصر لها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول[١٨] (*)

(*) ويقول جرانت فى هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا الضرورات الماسة العاجلة ، ويخيل إلينا أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين ، وراجت التجارة ، وكثرت البضائع وتنوعت ، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها[٢٠] . وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وانتشر طلاب العلم فى كل مكان ، وكثر الشعراء ، وبدأ الخزف الصينى يتخذ منظراً جميلا جذاباً . وجمع فى المكتبة الإمبراطورية ١٣٣ر٣ مجلداً فى الأدب الصينى القديم ، و ٧٠٥ر٢ فى الفلسفة ، و ٣٨٨ر١ فى الشعر ، و ٥٦٨ر٢ فى الرياضيات ، و ٨٦٨ فى الطب ، و ٧٩٠ فى فنون الحرب[٢١] . ولم يكن أحد يعين فى مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحاناً تضعه لهذا الغرض ، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء . والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذى مر فى تلك الأيام .

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافاً إليها خبث بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة . فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجدب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعاً لم تقو الحكومة على وقفه . وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية ، التى أضحت فى اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء ، وأشاروا بأن يغلى مخترع النظام الجديد فى الماء وهو حى ، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر ، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التى كانت الحكومة تفرضها عليهم[١٢] . ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

= يمكن إلا فى استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوما بعد يوم — ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه ، وبدت له قديمة بالية . وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حدا يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه . ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المشترعين أضاعا على الصين فرصة ثمينة قلما تعود لتجعل من بلادها دولة موحدة متدمجة منظمة »[١٩]

للموظفين ، وأصبحن عنصراً هاما فى موجة من الفساد انتشرت فى طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور (٢٣). وأخذ المزيفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا فى تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدى الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضعفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وو دى أو أضحت مسبة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر فى بداية التاريخ المسيحى بعد أربعة وثمانين عاما من موت وودى ، وكان فى بادئ الأمر وصيا على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصينى الكامل المهذب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد (*) . وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكمل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالا من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال يعزو أعداؤه أسباب إخفاقه ، وإليهم يعزو أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج فى بداية حكمه انتشارُ الرق فى ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها ليمنع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل (٢٥) . واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمور .

(*) إلا إذا صدقت الإشاعة التى انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الغلام فى السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهى أن أسرة وانج مانج قد سممته (٢٤) .

وحاول كما حاول وو دى أن يحمى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتحديد أثمان السلع . فكانت الدولة تشترى ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية وتبيعها إذا غزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة لكل مشروع إنتاجى(٣٦) .

لكن وانج لم يفكر فى خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل وبالنهار ليبتكر الخطط التى تزيد ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضرم قلبه أن وجد الاضطراب الاجتماعى ينتشر فى البلاد فى أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية كالفيضان والجدب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التى قضت هذه المشروعات على مطامعها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فثار نقع الفتن فى البلاد يصلت سيفها الشعب فى الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القائمين بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينما كان وانج يكافح فيقلم أظفار هذه الفتن ، وقد ساءه كفر الشعب بفضله وجحوده بنعمته ، إذ أخذت الشعوب الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برابرة الشيونج — نو يجتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هيبة الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الغنية ثورة عامة اندلع لهيبها فى البلاد ، واستولت على شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألغت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش فى أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من الفوضى حكمت فى أثنائه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد فى أيامها إلى دويلات متعددة . وتدفق التتار على البلاد ولم يصدهم عنها السور الكبير ، واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التتار

سبباً فى اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها النامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سَبباً فى اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا فى غمار الفوضى التى عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفى وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة فى الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر آجلا وأقل عمقاً من الاضطراب الذى قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانتعشت انتعاشاً رائعاً يبهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة فى أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضَّروهم ، وارتقوا هم وإياهم إلى أسمى ما بلغوه من المجد فى تاريخهم الطويل .

الفصل الثالث

مجد تانج

الأسرة المالكة الجديدة — خطة تاى دزونج فى تقليل الجرائم — عصر رخاء — « الإمبراطور النابه » رواية يانج — حوى — فى — ثورة آن لو — شان

تعزى نهضة الصين الكبرى(*) فى العصر الذى سنتحدث عنه فى هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهى امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التى انبعث من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو ناى دزونج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو جودزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجأة وعاد إلى شانجان عاصمة ملكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعنت بمرآة من النحاس فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جيء بهن لتسليته .

(*) انظر كتاب السير و . فلندر پيترى The Revolutions of Civilisation « دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم : « إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب »[٢٧] .

وزار الإمبراطور يوما سجون شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرثوا الأرض واكتفى منهم بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من سرور تاى دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسنّ من ذلك الوقت قانوناً يقضى بألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام . وجمّل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوربا ، وجاء إلى الصين عدد كبير من الرهبال البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال يوان چوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجان ليبشروا بالزردشتية والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم أكبر ، ويبسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعفى معابدهم من الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوربا تعانى آلام الفاقة والجهالة والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كنفوشيا بسيطا بعيداً عن التحيز والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابه إنه لما مات حزن الناس عليه حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا يشخنون أجسامهم بالجراح بالمدى والحراب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها بأنفسهم طائعين على نعش الإمبراطور المتوفى »[٢٨] .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعا ، فقد نعمت فى عهده بخمسين عاما من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها فى ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . ففصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانيها تمخر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندى والخليج الفارسى . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هـذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة[٢٩] . وبينما كان الحرير يباع فى أوربا بما يعادل وزنه ذهبا[٣٠] ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من الفراء فى القرن الثامن فى شانجان أكثر منها فى نيويورك فى القرن العشرين . وكان فى إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل[٣١] . وصاح لى پو فى إحدى الولائم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف فى المال ! أقداح من اليشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرصعة بالجواهر الخضراء ؟ »[٣٢] وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فُرش من اللؤلؤ[٣٣] . وكأنما أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجاءة ، وأخذ يكرم بكل ما فى وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين فى هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل يحق شاعرا »[٣٤] . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . ويروى « سير چون مانڤيل »[*] Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجرؤ على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يغنى وينطق بالفكاهات »[٣٥] . وأمر أباطرة المانشو فى القرن الثامن عشر الميلادى أن يوضع سجل يحوى ماقاله شعراء تانج ، فكانت

(*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسى كتب فى القرن الرابع عشر كتاباً فى الأسفار بعظمها خيالى ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتانة رائعة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر ، كانت هى التى أبقى عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما فى دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد ؛ وفى هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال فى أن الصين كانت فى ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقيا ، وأحسنها حكما على ظهر الأرض »[٣٦] ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهده العالم من الثقافات[*] » .

وكان زينة هذا العصر كله منج هوانج — أى « الإمبراطور النابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاما تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلا اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد النائية ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وفارس وسمرقند ، وألغى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راضياً مسروراً عنت الشعراء والمغنين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى فى حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكمثرى » ، وقد بدأ حكمه متقشفاً متزمتاً ، أغلق مصانع الحرير وحرم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقوريا يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، وضحى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يانج جوى — فى .

وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشر سنين محظية لا بنه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

(*) من أقوال آرثر ويلى[٣٧] . راجع دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان (أيام أسرة تانج) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار ، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيدة ، ذات أطوار شاذة متغطرسة وقحة ، وتقبلت منه إعجابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يعين أبناء هذه الأسر فى وظائف مجزية سهلة فى بلاطه .

وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منهمكا فى ضروب اللهو والفساد .

وكان فى بلاط مانج رجل تتارى يسمى آن لو — شان يعشق هو الآخر يانج جوى — فىْ ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب حاكم إحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه فى فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوىْ — فىْ من بين يدى الملك وقتلوها أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والهزيمة ، وعاثت حجافل آن لو شان الهمجية فى المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير(*) . ويقال إن ستة وثلاثين مليوناً من الأنفس قد قضى عليهم فى هذه الفتنة الصماء(٣٩) . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر فى الوصول

(*) وفى ذلك يقول آرثر ويلى Arthur Waley : « لما هزم التتار منج هوانج ونهبوا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتاح الترك فرشاى فى عهد لويس الرابع عشر »(٣٨) .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو ــ شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قتل هذا القائدَ ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخمدت جذوتها فى عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوانج محطماً كسير القلب إلى عاصمته المخربة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفى هذه الفترة من المآسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصينى ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

obeikandl.com

الفصل الرابع

الملاك المنسى

قصة لى پو — شبابه وبسالته وحبه — على القارب الإمبراطورى — إنجيل الكرم — الحرب — تجوال لى پو — السجن — « الشعر الخالد »

استقبل منج هوانج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضباً : « ماهذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقواد رجل واحد ينجينا من هذه الورطة ؟ قسما إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصينكم جميعاً عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون ويتضجرون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورءوسهم . ثم تقدم الوزير هو چى — چانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعاياك أن يعلن لجلالتك أن فى بيته شاعراً جليل الشأن يدعى لى متبحراً فى أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شيء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لى للمثول بين يديه ثمن فوره . ولكن لى أبى أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذى طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبى الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا اللقب . فجاء لى ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرغمهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لى هذه الرسالة أملى عليها رداً مروعاً ، ينم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد

يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً[٤٠](*) . وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — پوچنج ويسميه أهل الغرب ڤينوس[٤٠](**) . ولهذا سمى الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — پو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشيوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طوالا ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام (صينية) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقاة عشرة آلاف رجل »[٤١] (وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبيذ الكروم
وأقداح الذهب
وفتاة حسناء من وو —
فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،
ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —
وحذائين من النسيج القرنفلى المشجر —

(*) وتلك قصة ظريفة لعلها من وضع لى — پو .
(**) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —
ولـكنها تغنى أغانى ساحرة .
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،
المرصعة بأصداف السلاحف .
ثم سكرت فى حجرى .
أى طفلتى الحبيبة ! ما أحلى العناق .
خلف الستائر المطرزة بأزهار السوسن[٤٢] !

ثم تزوج الشاعر ، ولـكن مكاسبه كانت ضئيلة ، فغادرت زوجته بيته وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يبث فيها شوقه موجهة إليها ، أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —

أيتها الحسناء ، لقد كنت وأنت عندى أملأ البيت زهراً .
أما الآن أيتها الحسناء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر
الذى خلفته وراءك .
إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛
ولـكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،
أذرف الدمع — ويتلألأ رضاب الندى الأبيض على الـكلأ
الأخضر[٤٣] .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة المتعطلين فى أيكة الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير عجلة ، ويكسبون أقواتهم المزعزعة بأغانيهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلثمائة ميل[٤٤] .

والتقى فى تجواله بدوفو الذى صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعرى ، وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان فى البلاد معا كالأخوين ، وينامان تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً لأنهما كانا كالقديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوقة بنفس الأنفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر مدينة شانجان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لى حبا حمله على أن يبيع ما عنده من الحلى الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لى پو فقدم له ملء إبريق ،
يكتب لك مائة قصيدة
وهو يغفو فى حانة .
فى أحد شوارع مدينة شانجان ؛
وحتى إذا ناداه مولاه ،
فإنه لا يطأ بقدمه القارب الإمبراطورى .
بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .
أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويغمره بالهدايا جزاء ما كان يتغنى به من مديح يانج جوى — فى الطاهرة . وأقام منج مرة مأدبة ملكية يوم عيد الفانوس[*] فى فسطاط الصبار ، وأرسل فى طلب لى پو لينشد الشعر فى مديح حبيبته . وجاء لى ، ولكنه كان ثملا لا يستطيع قرض الشعر . فألقى خدم القصر ماء باردا على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

(*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . (المترجم)

يغنى ويصف ما بين الفاونيا وحبيبة يانج من تنافس فقال :

فى أثوابها جلال الغمام السابح ،
وفى وجهها سنا الزهرة الناضرة .
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلا
فوق قلة جبل الجواهر
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !
على أننى أشهدها هاهنا فى روضة الأرض —
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،
وتتلألأ نقاط الندى الكبيرة ...
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له
والذى حملته إلى القلب أجنحة الربيع[٤٥] .

ترى منذا الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن الملكة أدخل فى روعها أن الشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريضاً خفياً ، فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — پو كيسا به نقود وصرفه . فأخذ الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان تسرابهم على لسان الناس فى شانجان . وكان يرى رأى ليولنج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام خادمان يحمل أحدهما خمراً ويحمل الآخر مجرفا يستعين به على دفنه حيث يخر صريعاً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر »[٤٦] . وكأنما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن تزمت الفلسفة الصينية ، فأطلقوا لأنفسهم العنان . وفى ذلك يقول لى پو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنغسل بها

أرواحنا ونطهرها من الأحزان التى لازمتنا طوال حياتنا »[٤٧] . وهو يترنم ببنت الحان ترنم عمر الخيام :

إن المجرى الدافق يصب ماءه فى البحر ولا يعود قط .
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ
شبحا أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟
لقد كانت هذه الغدائر فى الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،
فلما أقبل المساء إذا هى كلها فى بياض الثلج .
هيا بنا ، ما دام ذلك فى مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،
ولا نترك إبريق الخمر الذهبى
يقف بمفرده فى ضياء القمر ...
إنى لا أبغى سوى نشوة الخمر الطويلة ،
ولا أحب أن أصحو قط من هذه النشوة ...
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !
لم تقولان إنكما لا تملكان ثمنها ؟
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،
ومعطفى المصنوع من الفراء والذى يساوى ألف قطعة من الذهب
سأخرج عن هذين وآمر غلامى
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة
ولأنس معكما يا صاحبى
أحزان عشرة آلاف من الأعمار![٤٩]

ترى ما هى هذه الأحزان ؟ أهى آلام من تحب ازدرى حبه ؟ لا نظن هذا لأن شعراء الصين لا يكثرون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملأ قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى مرارة المآسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو آن لو شاء الاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفراز الإمبراطور وموت يايج ، وعودة منج هوانج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهاية ! » ثم يأسو للنساء اللاتى قدمن أزواجهن ضحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وها هى ذى فتاة يورتشاو الحزينة !
لقد امتنع عليها الغناء ، وعز الابتسام ، وحاجباها أشعثان ،
وهى تقف بالباب ، تنتظر عابرى السبيل ،
وتذكر ذلك الذى اختطف سيفه وسار لحماية الحدود ،
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

* * *

فى مشيتها الذهبية الثمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،
قد بقى لها سهمان مراشان بريشتين بيضاوين ،
بين نسج العنكبوت وما تجمع من الغبار خلال السنين الطوال .
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه للقلب من أحزان .
ثم تخرج السهمين وتحرقهما وتذرو رمادهما فى الرياح .
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،
وهبت ريح الشمال ؟[٤٩]

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التى وصفه بهـا دزو تشوبج — چى : « على ظهرك حقيبة مملأى بالكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفى كمك خنجر وفى جيبك طائفة من القصائد »[٥٠] . وقد حبته رفقته القديمة الطبيعة فى هذا التجوال الطويل بعزاء وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفى وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المدن قد أخذ عبثها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لِمَ أعيش بين الجبال الخضراء ؟
إنى أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روحى ساكنة صافية ؛
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملكا لإنسان .
إن أشجار الخوخ مزدهرة والماء ينساب من تحتها[٥١] .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أبصرت ضياء القمر أمام مخدعى .
فخلته الصقيع على الأرض .
ورفعت رأسى ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،
وطأطأت رأسى وفكرت فى موطنى البعيد[٥٢] .

ولما تقدمت به السن وابيض شعره امتلأ قلبه حنانا للأماكن التى قضى فيها أيام شبابه . وكم من مرة ، وهو يحيا فى العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه للحياة البسيطة الطبيعية التى كان يحياها فى مسقط رأسه وبين أهله :

فى أرضى وو أوراق التوت خضراء ،
نام دود الحرير مرات ثلاثا .
وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتى ،
لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .
وليس فى وسعى أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر
إن ريح الجنوب إذا هبت أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .
وحملتها معها إلى حانتنا المعهودة .
وهناك أرى شجرة خوخ على الجانب الشرقى من البيت ،
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق ..
إنها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .
أى بنيتى الجميلة يا بنج — يانج ، إنى أراك واقفة .
بجوار شجرة الخوخ ، تنتزعين منها غصنا مزهرا ،
تقطفين الأزهار ، ولكنى لست معك —
ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !
وأنت يا ولدى الصغير پوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك
وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛
ولكن منذا الذى يربت على ظهرك هناك ؟
إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى
ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .

وهأنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض واكتب عليها هذه الرسالة
وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر (٥٣)

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكا يحنو عليه ويرد عنه غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لفج أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته

قبل هذا راضياً مسروراً ؛ ولكن لى — لنج خرج على خليفة منج هوانج ، فلما قلت أظفار فتنته ألقى لى بو نفسه بين جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه خان دولته .

ثم توسط له جوو دزيئى القائد الذى أخمد ثووة آن لو شان ، وطلب أن تفتدى حياة لى بو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . فخفف الإمبراطور عنه الحكم واستبدل به النفى مدى الحياة . ثم صدر عفو عام بعد ذلك بقليل ، وعاد الشاعر يتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت ؛ وتقول الأقاصيص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن يوجد مثلها بين النفوس ميتة عادية ، إنه غرق فى أحد الأنهار ، بينما كان يحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق صورة القمر .

وديوان شعره الرقيق الجميل المؤلف من ثلاثين مجلداً لا يترك مجالا للشك فى أنه حامل لواء شعراء الصين بلا منازع . وقد وصفه ناقد صينى بأنه « قمة تاى الشامخة المشرفة على مئات الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا وميض ملايين من نجوم السماء »(٥٤) .

لقد مات منج هوانج ، وماتت يانج وعفا ذكرهما ولكن لى بو لا يزال يغنى :

لقد بنيت سفينتى من خشب الأفاويه وصنع سكانها من خشب المولان .

وجلس العازفون عند طرفها وبيدهم الناى من الغاب المحلى بالجواهر والمزمار المرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبى دن الخمر اللذيذة وغيد حسان يغنين

ونحن نطفو فوق ظهر الماء تدفعنا الأمواج ذات اليمين وذات الشمال !

إذن لكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيقه الأصفر ،
حراً كعريس البحر الذى تعقب النوارس(*) دون غرض يبتغيه ،
إنى الآن أهز الجبال الخمسة بضربات من وحى قلمى .
هأنذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .
أيها الشعر الخالد ! إن ألحان شوبنج(**) لشبيهة فى روعتها بالشمس والقمر ،
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال(٥٥)

(*) المرلان ضرب من الخشب الثمين وعريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل سمك و النورس طائر مائى . (المترجم)

(٥٥) انظر ص ٩٦

الفصل الخامس

من خصائص الشعر الصينى

النظم الطليق — « التصوير » — كل قصيدة صورة
وكل صورة قصيدة . . — العاطفية — كمال الشكل

ليس فى وسعنا أن نحكم على الشعر الصينى بدراسة شعر لى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به (وهذا خير من الحكم عليه) وجب عليه أن يسلم نفسه فى غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال فى أن بعض الصفات الدقيقة التى يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى فى هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التى يتكون كل منها من مقطع واحد ولكنه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجرى من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يتشبثان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمع إلى النغمات — وما فيها من خفض ورفع — التى يترنم بها الشعر الصينى . وجملة القول أن نصف ما فى شعر الشرق الأقصى من جمال فنى يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية فى لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل فى صقلها وعظيم فنها عن المزهرية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويرى » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلا ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أهم ما نراه فى هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأنا قد لا نجد فيها ما فى شعر ملتن وهومر من

عظمة تارة وملالة تارة أخرى . ولكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر فى نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة فى بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعانى الكثيرة فى أنغام قليلة . وإذ كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الكتابة الصينية فى جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للكتابة التصويرية ، وتنفر من المعنويات المجردة التى لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المرئيات . وإذ كانت المعنويات تكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحت اللغة الصينية فى صورتها المكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيحاء دقيق . وكذلك كان الشعر الصينى ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيحاء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الكشف عن شىء خفى عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ، بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس فى وسع أحد غير الشرقى أن يستجيب لما يوعز به ويملأ الفراغ الذى يتركه . وفى هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »[٥٦](*) . فالشعر الصينى كالأخلاق الصينية والفن الصينى ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعمد إلى الاستعارة والمجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفى إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز فى القول وما يتقيد به من قيود . وقلما تراه فى صور روائية هائجة ، ولكن فى مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(*) انظر وصف مكولى للشعر فى مقاله عن ملتن . (المترجم)

الناس يقضون حياتهم متفرقين كالنجوم تتحرك ولكنها لا تلتقى أبداً.
أما هذه العين فما أسعدها، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك!
ألا ما أقصر أيام الشباب!
وإن لمامنا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال.
بل إن نصف من نعرفهم قد انتقلوا الآن إلى عالم الأرواح.
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى.

وقد يعترينا الملل فى بعض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى، وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال فتياناً وتحتفظ الدول بشبابها أبد الدهر. ونحن ندرك من هذا الشعر أن حضارة الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج، وأن الشعراء فى هذا العهد — كالفنانين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات التليدة، وأنهم كانوا يسخِّرون قدرتهم الفنية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من العيوب. ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلا فى غير بلاد الصين، ولا نرى مايضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها، ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار. ويقال لنا إن للشعر الذى كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيما فى تعليم كل شاب صينى، وإن الإنسان لايجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب. فإذا صح هذا كان فى تاريخ لى پو ودوفو بعض ما نجيب به حين نسأل لمَ يكاد كل صينى متعلم يكون فناناً وفيلسوفاً؟

الفصل السادس

دوفو

داوتشين – پو – چوى – قصائد لشفاء الملاريا – دوفو
وفى پو – رؤيى الحرب – أيام الرخاء – الإملاق – الموت

لى پو عند الصينيين شبيه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين غنزه من المغنين ، لايكاد يقلّ حبهم لهم عن حبهم للى پو ، فمنهم داوتشين الشاعر الرواق البسيط الذى اعتزل منصباً حكوميا ، لأنه على حد قوله لم يعد فى وسعه « أن يحنى فقرات ظهره نظير خمسة أرطال من الأرز فى كل يوم » أى أن يبتاع مرتبه بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزلها كثيرون من رجال الدولة اشمئزازاً من حياة الوظيفة ذات النزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات ينشد فيها « طول السنين وعمق الخمور » ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلوى والبهجة ما صوره رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأقحوان تحت السياج الشرقى ،
ثم أسرح الطرف طويلا فى تلال الصيف البعيدة
وأملأ صدرى من هواء الجبال الذكى عند مطلع الفجر ،
وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .
إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،
لكننا إذا شئنا التعبير عنها خانتنا الألفاظ فجاءة . . .

ألا ما أسخف أن يمضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المطمورة فى تراب الطرقات !

ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلا حبيساً فى قفص ؛
وهأنذا قد عدت
إذ لا بد للإنسان أن يعود
ليحيا حياته الطبيعية[٥٧]

أما پو — چوى فقد سلك مسلكا آخر ، إذ اختار المنصب الرسمى والحياة فى العاصمة . وصار يرقى فى المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانج تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . لكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة فى فترات نفى فيها من بلده[٥٨] . وعرف السر الذى يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجماهير ، وبين الراحة والحياة الناشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلا وسطا غير ممتاز فى « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، وبيسر ، وهى الوسائل التى تؤدى إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »[٥٩] . وكان مولعاً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروى عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم شىء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش فى كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقمرات السفن . ويروى أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنى راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن فى مقدورى أن أسمعك قصيدة الأستاذ پو : الغلطة الأبدية »[٦٠](*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذى يقول فيه ارثر ويلى Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون فى الأدب

(*) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التى يروى بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى فى موتها فى أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة محاكاة إلى الحد الذى توصف به ، وهى أطول من أن تتسع لها هذه الصفحات .

الصينى من الإنجليز أن يقولوا إن لى تاى — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى »[٦١]

ونحن نسمع به لأول مرة فى شانجان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكوميا ، ولـكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت فى عضده ، رغم أنه أخفق فى مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحمى الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه[٦٢] . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجحه فيه وعينه أمين أسرار القائد تسُوًّا . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه فى قريتهم النائية ، فأقام فى العاصمة وتبادل هو ولى بو الأغانى . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لى بو يقول :

أحب مولاى كما يحب الأخ الأصغر أخاه الأكبر ،
فى الخريف وفى نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفى النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا فى أيام كان منج ليانج يحب جوىٰ فىٰ فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين فى بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصوّر الناحية الإنسانية من الحرب :

فى الليلة الماضية صدر أمر حكومى
بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .
وأمروا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة
أيتها الأم ! وأيها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !
إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .
وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام

ووقتئذ لا ترحمكم الأرض ولا السماء .
وهل تعرفون أن فى شانتونج مائتى مقاطعة قد استحالت صحارى مجدبة ،
وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟
وأن الرجال يذبحون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..
ولو أننى كنت أعرف ما هو مخبأ للأولاد من سوء المصير
لفضلت أن يكون أطفالى كلهم بنات ...
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفنوا تحت العشب الطويل .
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب فى الماضى البعيد مدفونة بجوار
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهى بيضاء رهيبة تراها العين فوق الرمال ، .
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جمامات ،
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت الريح الباردة ،
علت أصواتهم حتى علمتنى كيف تقتل المرء الأحزان ...

إن الطيور تتناغى فى أحلامها وهى تحلق فوق الماء
والبراعة تشع بضيائها فى غسق الليل .
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟
إنى أتحسر خلال الليل فى غير طائل[٦٤]

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يطوف بأنحاء الصين تقاسمه إملاقه زوجتُه وأبناؤه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه خرر اكعاً يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان[٦٥] . ثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم ين وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخاً على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر(*) . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروبا يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟
إن أمامى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .
وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحفى وكتبى
وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...
فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال
مشيت رويداً ، وتمنيت أن يغرق الجمال روحى
أحب أن ألمس ريش الطير .
وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .
وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،
بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،
ألا ما أحلى الجلوس على الكلأ ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى . . .
أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر التى فى زرقة اليشب(٦٥) .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثارت الحرب حول الشاعر ، فأمسى وحيداً لا سند له إلا عبقريته ، وسرعان ما ألفى نفسه

(*) ويصور رسم صينى شهير « الشاعر دوفو فى الكوخ المغمى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدما ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان فى آخر أيامه شيخاً مهدماً بائساً وحيداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضعفه أن يقاومهم[٦٧] ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد فى وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لى پو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه فى البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فحج إلى جبل هوِن المقدس ليزور فيه معبداً ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحكام قرأ شعره ، فآواه إلى منزله وأقام وليمة تكريماً له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفو قد رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويغنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات فى اليوم الثانى[٦٨] .

الفصل السابع

النـــثر

وفرة الآداب الصينية — الروايات العرامية — التاريخ
زوماتشين — المقالات — هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تانج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصينى ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقيقة ما كان فى هذا العصر من وفرة فى الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون الملكية الأدبية عاملا من العوامل التى ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية فى البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتابا تباع الواحدة منها بريال أمريكى ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصينى القديم كلها بريالين[٦٩] . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس فى وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم فى هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويذيع أسماءهم فى سرعة وسهولة . ولذلك فإنا قلما نجد له ذكراً فى بلاد الصين قبل أن يدخلها المغول[٧٠]

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر فى تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يبالون بهذه الفروق ، ويتركون أغانى پو — جوى ولى پو فى غير تحرج ، ويفضلون عليها الروايات الغرامية التى لا حصر لها ، والتى يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التى تكتب بها المسرحيات . وهى تصور للصينيين فى وضوح ما فى ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل النادر منها ، روايات تاريخية ، وقلّ أن يوجد فيها ما هو واقعى البتة ، وأقلّ منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفسانى أو الاجتماعى الذى يرقى « بإخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلم » War and Peace و « البائسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جوان أو « قصة حواشى الماء » التى ألفها رهط من الكتاب فى القرن الرابع (*) .

ومن أكبر هذه الروايات حجما رواية « هونج لومن » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهى رواية فى أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو جاى جيئى أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهى التى يجلها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سان جوجى يان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهى رواية منمقة الأسلوب فى ألف صفحة ومائتين كتبها لو جوان — چونج (١٢٦٠ — ١٣٤١) فى وصف الحرب

(*) لقد ترجمت مسز پيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة حيدة وسمتها « كل الناس إخوة All Men are Brothers » وطبعت فى نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التى أعقبت سقوط أسرة هان(*) ، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التى كانت منتشرة فى أوربا فى القرن الثامن عشر . وكثيراً ما تجمع هذه الروايات (إذ جاز لنا فى مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها) بين تصوير الأخلاق الفكه اللطيف الذى تراه فى رواية تم جونز Tom Jones وبين القصص الشائق الذى نراه فى جل بلاس Gil Blas . وهى أصلح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون فى السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الآداب شأنا فى الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازى من ظهر منهم فى الصين ، وما من شك فى أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت فى التاريخ بقدر ما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد فى الصين قدراً من الأدب التاريخى لا نرى له مثيلا فى طوله ولا فى ملله فى جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً فى « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمى نشر فى عام ١٧٤٧ فى ٢١٩ مجلداً ضخماً(٧١) . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة فى الصين مبتدئة بالشو — جنج أو « كتاب التاريخ » الذى هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالدرو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وحوليات كتب الغاب التى وجدت فى قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج فى القرن الثانى قبل ميلاد

(*) وترجمها ش . هـ . بروت تيلر C. H. Brewtt-Taylor فى جزأين وطبعت فى شنغهاى سنة ١٩٢٥ .

المسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخى الذى جمعه زوما تشين وبذل فى جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه فى منصب منجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذى بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذى كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملا . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هى : (١) حوليات الأباطرة ، (٣) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول فى المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرابين الإمبراطورية ؛ والمجارى المائية ، والاقتصاد السياسى (٤) حوليات أمراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذى تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت فى ٥٢٦,٠٠٠ متر صينى نقشت بقلم مدبب على ألواح من الخاب فى صبر طويل[٧٢] .

ولما فرغ زوما تشين من وضع كتابه هذا الذى قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضف إليه إلا هذه المقدمة المتواضعة :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها إخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتكم عن محاولته الجريئة التى تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل فى لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاقها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه ومطمعه فى الحياة ، وإن ثوت عظامه فى الينابيع الصفراء »[٧٣] .

ولسنا نجد فى صفحات كتاب زوما تشين شيئا من تألق تين Tsine ، ولا تُرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للعلة والمعلول كما نجدهما فى توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق فى لغة موسيقية كما نجد فى جِبُن Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع فى الصين من صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سميه زوما جوانج الذى حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاما للصين ، نقول ظل هؤلاء المؤرخون يكدحون ليدوّنوا فى صدق وإخلاص حوادث أسرة حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضاعوا فى هذا العمل كل ما كان لهم من مال ، بل إنهم أضاعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم كلها فى سبيل الحقيقة لا يبغون عنها بديلا ، ولم يدخروا شيئا من هذه الجهود ينفقونه فى جمال الأسلوب ، ولعلهم كانوا فى عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ ينبغى أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضى يعتريها الغموض إذا وصلت إلينا فى زينة جِبُن أو فى مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن(*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفى وسعنا أن ننافس أية أمة من الأمم فى عدد المجلدات التى خصصت لتسجيل — وجمع — أتفه الأشياء .

أما المقالة الصينية فهى أجمل من التاريخ الصينى وأعظم منه بهجة . ذلك أن الفن فيها غير محرم والفصاحة مطلقة العنان . وأوسع كُتاب المقالات شهرة هان يو العظيم الذى يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلونها إجلالا بلغ من قدره أنهم يطلبون إلى من يقرؤها أن يغسل يديه بماء الورد قبل أن يمسها .

وكان هان يو وضيع المولد ولكنه وصل إلى أرقى المراتب فى خدمة الدولة ، ولم يغضب عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه

(*) يقصد أمريكا . (المترجم)

مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرفة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشى الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور (٨٠٣ ق . م) تقتبس منها هذه السطور لتقدم للقارئ مثلا من النثر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمينة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتسلموا عظما من عظام بوذا ؛ وأن جلالتكم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهياكل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتفال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتكم لاتفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعلونه مسايرة منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا الجنون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرخاء غايته ، وامتلأت جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاى بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتكم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : هاهو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوىّ الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرق الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتكم . ونتيجة هذا أن تتملك الشعب كله ، صغاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهياكل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتم عليهم جلالتكم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عاداتنا وتقاليدنا ، وتصبح مضغة فى أفواه الناس وهدفاً لسخريتهم على ظهر الأرض .

« ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجلل بالعار من أفعال الرقباء(*) ، يضرع إلى جلالتكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يجتث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالتكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثأر لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو فى هذه اللحظة يُشهد السماء على أنه لن يحيد عن عقيدته(٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التحريف ، ذلك بأن العالم قد أوتى من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفى هان إلى قرية فى هوانج — توبج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفى ، بل شرع يهذب الناس ويجعل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشيوس . وقد بلغ من نجاحه فى عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها فى هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حيثما مر »(٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية فى هيكل كنفوشيوس — وهو المكان الذى يحتفظ به عادة لأتباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيله ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

(*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هى أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يحج قط على رصاء الإمبراطور تى دزونج من انتشار البوذية فى الصين .

الفصل الثامن

المسرح

منزلته الوضيعة فى الصين — منشؤه — المسرحية — النظارة — الممثلون — الموسيقى

ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساما جامعة مانعة ، لأن الصينيين لا يقرون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل فى الصين منزلة تتناسب مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه فى هذا شأن كثير من مقومات الحياة . من أجل ذلك لا نكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ، والممثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها فى إعداد أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة وما من شك فى أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين فى جميع الحضارات وبخاصة فى العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل الدينى الصامت المضحك الذى نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصينى ، فلقد كانت الطقوس الدينية فى عهد أسرة جو تشمل أنواعا من الرقص المصحوب بالمخاصر . ويقال إن هذا الرقص قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذى فصل الرقص عن المراسم الدينية هو الذى نشأ منه التمثيل غير الدينى[٧٦] . وشجع منج هوانج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثيراً من الفنون الأخرى ، وذلك بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتيان حديقة الكمثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاما قوميا معترفا به إلا فى عهد كو بلاى خان . ذلك أنه لما اختير كونج دوفو — وهو من سلالة كنفوشيوس — فى عام ١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن الماجن فى هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية فى هذه الأيام هى المسرحيات التى كتبت فى أثناء حكم المغول(٧٧) .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طواراً فى حقل خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين فى العراء .

وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة فى أثناء المآدب ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل فى أثناء القرن التاسع عشر الميلادى ، ولكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها فى مدينة نانكنج الكبيرة أكثر من دارين(٧٦) ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكتها عادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث فى بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة فى ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمن التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لكنه فى أكثر الأحيان كان يمتد نحو ست ساعات أو سبع . وهو الزمن الذى تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية فى هذه الأيام .

وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف فى الأقوال والأعمال ، ولكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمتها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاقى ، تعلّم الشعب شيئا من تاريخه ، وتغرس

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها .

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث ، ولم يكن له مخرج للممثلين ، فكان هؤلاء جميعا سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها ، يجلسون على المسرح طوال وقت التمثيل ، ويقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون ؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات ، ويقدمون لهم القطائل ليمسحوا بها وجوههم فى ليالى الصيف ؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلفت أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت ؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكى يسمعهم النظارة ، وكانوا فى أغلب الأحيان يلبسون أقنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولما حرم تشين لونج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلا بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا بد لهن أن يعملن جاهدات على تقليد مقلديهن حتى يضمن النجاح . وكان لا بد للممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب البهلوانية ، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ، ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل ؛ وكانت حركات اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متفقة مع العرف والتقاليد القديمة ؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه ماى لانج — فانج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر .

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن فى أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه فى صفاتها مسرحيات العصور الوسطى فى أوربا ، ولكنها كاملة فى نوعها كمال الموسيقى البلسترينائية Palestrina أو الزجاج المصبوغ(٣٩) .

وقلما كانت الموسيقى فنا قائما بذاته عند الصينيين بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزو منشأها كما كانت تعزو منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطورى فوشى . وقد احتوى اللى — جى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشيوس عدة رسائل فى الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الدزو — جوان الذى كتب بعد عائة عام من أيام كنفوشيوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد ويه . وما أن حل عهد كوبج دو — دزه حتى كان السُّلَّم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقادم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقض مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضج بالشكوى من الأنغام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنغام الماضى المتفقة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق(٨٠) .

ثم شرع النفوذ اليونانى البكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .

وقد عرف الصينيون تقسيم البعد الكلى فى الموسيقى إلى اثنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكنهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و « صورة الكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكنهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الناى والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الكمان الأوسط والمزهر وغيرهما ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من الخشب والعقيق[٨١] . وكانت النغمات التى تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربى ، كما تبدو ، فى ظننا ، أحسن الأغانى الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصينى . ولكن هذه النغمات هى التى أثرت فى نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلا نباتيا ، وهى التى جعلت كثيرا من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذى لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يو فى هذا : « لقد علم الحكماء الإنسان الموسيقى لكى يقشعوا ما فى نفسه من حزن وغم »[٨٢] وكانوا يؤمنون بقول نتشه : « لولا الموسيقى لكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .